العامل بأمانة . ولكل حياة طاهرة ونقية ولكل أم تخيط الملابس وتهيء المهد بآمال حية . . . . .

من يقول ان العالم وادي دموع وظلمات ؟!! فالنحل والطير والزهر ينفي ذلك ويقول انه عالم غبطة وهناء وسرور يتألق ببريق الابتسامات أملى

بين المقابر

آذنت نجوم الليل بالمغيب وتسلل النور يمزق حجب الظلمات وقطع الصمت المطلق آذان المؤذن وصياح الديكة وبدأت علامات الحياة والحركة تدب في الموجودات رويداً رويداً واذا بجموع تعمر الطريق على غير ماهو مألوف في مثل تلك الساعة من مطلع النهار من شيوخ وعجائز وفتيان وفتيات وصبية وصغار . فالى أين يقصد هؤلاء الجادّون في سيرهم وعليهم سيماء التلهف والشوق والحنين ؟ قفوا أسائلكم جميعاً فالمكم مولون وجوهكم شطر القبلة التي وليت وجهي شطرها . اذن فهيا يارفاق ! هيا بنا نعجل نحو الديار الغالية والبقاع المقدسة ! هيا الى مثوى الأعزاء ! هيا الى المقابر نفيض فيها باشجاننا ونفضي اليها بمكنون آلامنا ونذرف على جوانبها حار دموعنا! هاهي الديار فسلام على ساكنيها جللها الصمت فالتقف متهيبين وسط هذا الجلال الرهيب . وخيمت عليها الوحشة والروعة . فهل يصل صدى أصواتنا ليؤنس المستوحشين في ظلمات القبور من سادة وعبيد وشيوخ

وشبان وغادات حسان سوى بينهم الموت في تلك الحفر الضيقة .

سلام على العلم والحكمة والعظمة واراها الثرى . سلام على الهمم العالية والآمال الكبيرة دفنت في أعماق القبور . سلام على البسمات العذبة والعيون الساحرة وعلى كل زهرة ذوت تحت التراب .

تفرقت الجموع هنا وهناك . كل يؤم القبر الذى ضم عزيزه ونثرت الأزهار ورويت الزروع المزدانة بها القبور رمزاً للذكرى . ثم علت أصوات المقرئين بتلاوة آي الذكر الحكيم ووزعت الصدقات تستنزل بها الرحمة على أرواح الموتى . وملأ جوانب المكان صوت الألم المنبعث من قرارات النفوس .

هذا صغير يتيم فقد أمه فى سن ينعم فيها الاطفال بين احضان أمهاتهم بذاك الحنان اللانهائي الذي هو للعين ضياء وللقلب شفاء وللروح غذاء فأورثه اليتم حسرة أثارها مشهد قبر أمه فانكب عليه يبكيها ويبثها مالاقاه من الويل والأسى بحرمانه منها . يا لمرارة الصيحات اليائسة يبعث بها الصغير اليتيم من قلب غاض عنه منهل الرحمة الفياض وأثقله الألم قبل أن يدرك صاحبه معنى الألم !

وتلك عجوز محدودبة الظهر منهوكة القوى جمالها قلبها المحترق بجمرة اللوعة الى هذا المكان المحبب لكل محزون ، فانحنت على التراب تلثمه وعلى الحجر تضمه شاعرة بحب واجلال لتلك الجمادات الخرساء مستودع وحيدها المفقود أملها الذاهب ترثيه بعبارات موجعة زفر بها الفؤاد المكلوم:

« إي ولدي ! اختطفك الموت مني غدراً وغيلة وقد كنت لي الزهرة التي أترقب أثمارها وما رحم شبابك الغض ولا رثى لضعفي وسوء حالي فخلفتني

للهم والأسى أقاسي ألم الوحشة لفراقك ومرارة الحسرة لآمال علقتها عليك وأصبحت بعدك صفر اليدين لا أمل أنشد ولا لذة في الحياة تهون عليّ احتمالها وصرفني الحزن عليك عن التفرغ للتقوى والعبادة اللائقة بشيخوختي. ولكن غفرانك اللهم ! فقد أذهلني فقد ولدي . هذا مصيرنا جميعاً وتلك ودائعك ردت اليك وخيرنا من سبق اختياره لجوارك. عوضهم ربي عن شبابهم بنعيم جنتك واملأ بالإيمان قلبي آنس به حتى تلحقني بولدي»

والى جانب تلك المجوز المأخوذة بمختلف العوامل فقيرة ضريرة قادها الناس الى قبر صغير فارتمت عليه صارخة مولولة الى حد استلفت الانظار واستثار العطف لتلك الباسلة التي تندب طفلة صغيرة عهد اليها بتربيتها وطاب لها العيش في ظلها زمناً ثم اختطفها الموت من بين احضانها. ليس للصغيرة أم تذرف عليها دموع الحنان فابكيها أيتها الاجيرة الضريرة بما أودعت الحضانة من حب لها في قلبك وابكي معها أملا في حياة هنيئة كنت تسعدين بها الى جوارها .

وهناك في زاوية المقبرة وقف شيخ جليل أمام لحد زوجه التي كانت مثالا للاخلاص يهمس بالتلاوة مستمطراً واسع رحمة الله على روح فقيدته التي لا يفتأ يذكر لها بالخير ماضياً هنيئاً . ولكم أفصحت نظراته الآسفة الهادئة بما فيها من هيبة ووقار عن أجمل معنى للوفاء .

وفي كل مكان تسمع صيحات وزفرات وترحماً ودعوات وترى ميلا عاماً لفعل الخير وشعوراً خالصاً بتأثير رهبة الموت من شوائب الرذيلة التي لا تسلم منها النفوس في مزاحمات الحياة . وما أنا وسط هاتيك الجموع بالمشاهدة عن بُعد فلكل نصيبه بين المقابر ولي نصيبي ولكل حزن على

عزيزه ولي حزن عميق تملك قلبي مذ فقدت أخي وشقيق روحي .

وإلوعتاه ! ماحيلة المحزون ان برح به الشوق والحنين . هي تلك الابعاد النائية والقفار الموحشة راحة نفسه وغاية قصده ولكم هاجني الشجن لأن أزور تلك الديار وأقف بجانب القبر المحبوب ساعة أنسى فيها وجودي وأهيم بالذكرى .

إيه قبر أخي ! لقد حباك القدر بما أهداك . زهرة شباب يانعة عنى بتعهدها حتى طاب شذاها وفاح أريجها وكساها الربيع نضرة وبهاء زانت بهما مكانها تحت الشمس ، اقتطفها الموت قبل ان تثمر ويدرك الشباب غايته من الحياة . فأنت ياقبر بهديتك النفيسة عامر وقلوبنا الملتهبة لايعمرها الا جمرة الحسرة يذكى لهيبها الذكرى .

إيه مثوى الرفات الغالية ! حدثني حديث النزيل في طياتك أبدله الموت بالنعمة مهاداً من الأرض ووساداً من الثرى . وحرمه كل مافي الوجود من جمال . ماذا يؤنسه في ظلامك الدامس ووحشتك الرائعة ؟ لعل طهره ورقته ينيران حوله حالك سوادك ، ومروءته وبره يؤنسانه في رائع وحشتك بجميل ماينال من أن لكل امرىء ماقدمت يداه .

إيه أيها الصامت الناطق ! ماذا فيك من قوة تجذبني اليك وتدفعني لان ألقى بنفسي عليك ، وماذا عندك من سحر يسري أثره لأول ماألامسك خلال جسمي فتهتز أعصابي وتثور نفسي وأذهل عن كل ماحولي الا عن كونك باب الأبدية المقفل في وجهي دون أحب الناس اليّ . لقد ادركت السر حين زرتك لاول مرة وعلمت اني حين استودعتك أخي أودعتك معه شطراً من أملي وسعادتي كان وجوده مبعثهما لحياتي فلما ان قضى ملأ

قلبي محله لوعة حزن ، ان جاء الزمن على كل العواطف فهي الباقية معي على الأيام مابقيت . سقياً لماضٍ جميل تذوقت فيه نعيم الحياة صافياً ومرحباً بكل ماتجيء به اللوعة العزيزة من صنوف الألم فأني أقدسها وأجلها لاختلاطها بذكرى دفينك العزيز ونزيلك الكريم وهل أقدس من الحزن على أخ غاله الموت في عنفوان الشباب ؟

وداعا ياساكن الرمس وخيالك ملء نظري وقلبي ! لتحرسك العناية ولتغن البلابل فوق قبرك وليمطر الغيث تراك ! وداعا يا أهل المقابر ! انا الى ديارنا عائدون لنقطع المراحل المقدرة لنا في الحياة وان مدلنا في الأجل فما قريب تقودنا اليكم الذكرى .

احسان حسين هيكل

البائسون

البائسون في الدنيا كثيرون . ولكن أعظمهم بؤساً ذلك البائس الحزين الذي ألزمته ضرورة من ضرورات الحياة أن يهبط بآلامه الى أعماق قلبه فيدفنها ويوصد خلفها باباً حصيناً من الصمت والكتمان ثم يظهر بين الناس باش الوجه باسم الثغر كأنه لايحمل بقلبه هماً ولا ألماً . يضحك والحزن يأكل أحشاءه . ويبتسم والألم يقطع نياط قلبه . ولكنه اذا ماخلا بنفسه أطلق لعواطفه العنان وانفجر الدمع من مآقيه وبكى ماشاء الله أن يبكي . . تراه فتظنه سعيداً فتحسده على نعمته وتود أن يكون حالك